الأخبار
al-akhbar

■ رئيس التحرير ـ المدير المسؤول:
ابراهيم الأمين

■ نائب رئيس التحرير:
بيار أبي صعب

■ مديرا التحرير:
إيلي شلهوب،
وفيق قانصوه

■ مجلس التحرير:
محمد زبيب
حسن عليق
إيلي حنا
أمل الأندري
شربل كريّم

■ صادرة عن شركة أخبار بيروت

■ المكاتب بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق السادس
■ تلفاكس:
01759500
01759597
■ ص.ب 113/5963

■ الإعلانات
الوكيل الحصري
ads@al-akhbar.com
01/759500

■ التوزيع
شركة الأوائل
15ـ01 /666314 ـ
03 / 828381

■ الموقع الالكتروني
www.al-akhbar.com

■ صفحات التواصل
/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/alakhbarnews-paper

سوريا: جدل البقاء والخروج

ورد كاسوحة *

حين يتعلّق الأمر بجدوى الكتابة عن سوريا وما يحدث فيها، فإنّ المعيار الأول لذلك هو باتخاذ موقف لا يكون منفصلاً عن الفاعلية السياسية. وهذا يسمح لصاحب الموقف بالحضور الفاعل في قلب أيّ نقاش حول الوضع، وغالباً ما يكون هذا الحضور مصحوباً بالاستعداد لدفع ثمن أيّ كلمة تُقال، أو تُكتب. وبالفعل، دفع العديدون والعديدات ثمن مواقفهم، واضطروا بسبب ذلك إلى الخروج من البلد. فيما بقي آخرون داخله، ليستكملوا مسيرة الاشتباك مع الواقع، ومحاولة «تغييره» من الداخل، عبر ممارسة أنماط متفاوتة من الفاعلية والتأثير.

نقاش الفاعلية

ثمّة في الحالتين رغبة حقيقية في فعل شيء لإنقاذ الوضع، وعدم تركه ينهار، أو يذهب نحو التهلكة. ولكن ثمّة فارق أساسي، أيضاً، لا يلحظه الكثيرون، عندما يناقشون مسألة تناول الكُتّاب، أو النشطاء للوضع السوري. فمن خرج بسبب ملاحقة أمنية، أو سياسية، أصبحت الكتابة بالنسبة إليه فعلاً آمناً، وحين يكتب أو يُبدي موقفاً لا يترتب على فعله ذاك، أو كتابته تلك، أيّ أثر لجهة الإضرار به أو بعائلته، فهذا يعني أنّه أصبح خاضعاً لشرط أساسه الانفصال عن الواقع الذي يكتب عنه. ولذلك فإن كتاباته، مهما كانت درجة نقديتها، تظلّ محتفظة بشرطها الذي يبدو بالقياس إلى الداخل وما يحدث فيه خارجياً ومنفصلاً، هذا إذا كانت القدرة على التأثير بالنسبة إليه لا تزال ممكنة. وهي على الأغلب ليست كذلك. في المقابل، تحتفظ الكتابة من الداخل، على الرغم من خضوعها لشرط الخوف من السلطة وأجهزتها الأمنية والعسكرية، بحرارتها وتظلّ مهما خفتت نبرتها النقدية راهنة، وعلى تماسّ مباشر مع الواقع وتحوّلاته، وحتى لو اختار أصحابها بسبب الحذر، أو «الخوف» تناول مواضيع أخرى غير الشأن السوري، فإن ذلك لا يُعدّ تنازلاً منهم، بقدر ما يكون اختياراً لطريقة أخرى، أو منهج آخر في التعبير عن الموقف. هذا لا يعني أنّ ثمة فصلاً قد حدث، بين كتابات الداخل والخارج، كما لا يعني أن كلّ ما يُكتَب في الخارج أصبح بلا أثر. ولكن، بالنظر إلى الكيفية التي حصل فيها الأمر، يتحوّل البقاء في الداخل رغم «الاستحالة»، التي ينطوي عليها، إلى شكل من أشكال المقاومة وعدم الرضوخ، فضلاً عن كونه بالأساس حاجةً لإبقاء الفاعلية السياسية قائمة، وعدم تركها تتلاشى تحت ضغط النزوح الجماعي للكتّاب والمثقفين السوريين.

> **أراد المستقلون الحفاظ على وجودهم داخل سوريا للكتابة منها**

مسؤولية السلطة/ السلطات

هذا النقاش، لا يتطرّق إلى مسؤولية السلطة عن الأمر، وهي بكلّ تأكيد المسؤول الأول عن حصول هذا التعارض، بين ما يكتب هنا، وما يكتب هناك. فالعملية السياسية، التي ابتلعتها منذ البداية، محوّلةً إياها إلى «حرب ضدّ المجتمع» (وذلك قبل ظهور التكفيريين، والمجموعات الوهابية المقاتلة) كانت تحتاج إلى وجود بيئة تسمح للمجموعات المختلفة بالحوار، وتقرّب بين وجهات النظر التي لم تكن قد ابتعدت عن بعضها كثيراً. وبدلاً من الاستفادة من وجود الكتاب، والمثقفين، وأصحاب الرأي لحثّهم على خلق هذه البيئة، والدفع باتجاهها أخذت تلاحقهم وتخلق الشرط تلو الآخر لإبعادهم عن المجال العام، وعدم تركهم يتحرّكون إلا في إطار ما تريده هي وتسمح بتواجده.

كان ذلك كفيلاً بتحطيم أيّ إمكانية لإيجاد مسار سياسي داخلي يستطيع احتواء الاحتجاجات وعدم الدفع بها باتجاه ما تريده القوى الخليجية، التي بدأت بالاستفادة من الوضع عبر الزجّ بعملائها وشبكاتها المالية والسياسية في أتون الصراع. بعد ذلك، حصل الانقسام الكبير، وتوزّعت النخبة السورية على طرفي الأزمة، ولم يتبقّ للقلة التي حافظت على استقلاليتها وموقفها المتّسق من الصراع الكثير لتفعله. جلّ ما كانت تريده بعد انزوائها أن تحتفظ بالقدرة على الكتابة من الداخل، بحيث تبقى على تماسّ مباشر مع

مثقفون في الخدمة أو «الأرَضَة المُتعلّمة»: من الاستعمار

عبد الله بن عمارة*

«...الاستعمار لا زال في حاجة إلى أقلام يكتب بها، وإلى أبواق يتكلم بها، حتّى لا يُعرف خطّه، ولا صوتهُ، عندما يخادع الجماهير الطيبة. وهذا يعني أن الأرَضَة المُتعلمة، لا زالت منتشرة في البلاد الإسلامية على وجه العموم. وقد عرفنا منها أصنافاً بالجزائر على وجه الخصوص». من كتاب «في مهب المعركة - إرهاصات ثورة» (ص 88-90)، لمالك بن نبي.

بعد ست سنوات على احتفال فرنسا بالذكرى المئوية لاحتلالها للجزائر، كتب أبرز المثقفين الجزائريين، فرحات عباس، مقالاً بعنوان «فرنسا هي أنا»، في مجلة «الوفاق»، بتاريخ 27 شباط 1936. يقول فيه: «...لن أموت من أجل الوطن الجزائري، لأن هذا الوطن لا وجود له، ولم أكتشف هذا الوطن... لقد بحثت في التاريخ، وسألت الأحياء والأموات، وزرت المقابر، فلم يُحدّثني أحد عن هذا الوطن». كانت كلمات عباس تعبيراً عن أفكار «النخبة المثقفة» المطالبة بالاندماج التام للجزائريين في الأمة الفرنسية، مُنطلقاً من موقع المُنظّر للواقع الاستيطاني الفرنسي، وليس القابل بوجوده فحسب. فعبارة «لقد بحثت في التاريخ» هي المفتاح الذي يُحيلنا على الهيمنة الثقافية للاستعمار، من خلال اختصاصات العلوم الإنسانية من تاريخ، وعلم اجتماع، وأنثروبولوجيا (أو أدب، خصوصاً الرواية كما يُفصّل إدوارد سعيد في كتابه «الثقافة والإمبريالية»)، في إطار مؤسسات بحث بـ«جيوش» من المستكشفين، وضباط الجيش، ورجال الدين الذين قدموا بحوثاً ودراسات حول مختلف الظواهر الاجتماعية، والإثنية، واللغوية للشعب الجزائري، لتوظيفها لأغراض كولونيالية بحتة، وتلقينها عبر النظام التعليمي الاستعماري لأجيال من أبناء عملاء النظام الاستعماري (وهم ما تبقى من كبار المُلّاك، وزعماء دينيين مُوالين وموظفي الإدارة الاستعمارية).

وهذا ما دعا المفكر والمناضل الجزائري، محمد شريف ساحلي، إلى ضرورة التحرر من «مصادر التلقين» المرتبطة بمؤسسات الهيمنة الثقافية الاستعمارية، والبحث المُستقل عنها، في كتابه «تخليص التاريخ من الاستعمار». وسار في المنحى ذاته المفكر والمناضل، مصطفى الأشرف (كان مرافقاً لقادة الثورة الجزائرية على متن الطائرة التي اختطفتها السلطات الفرنسية في 1956)، في فهم الظاهرة الاستعمارية فهماً شمولياً يتجاوز النظر إليها، كحالة غزو ذو طابع عسكري محض. فحلّل في كتابه «الجزائر: الأمة والمجتمع»، في فصل «بسيكولوجيا غزو»، وحشية الجيش الفرنسي في حملات الابادة، التي قادها بعد 1830. ونَقَضَ مضمون الخطاب الاستعماري القائم (ككل خطاب استعماري وعلى رأسه الصهيوني) على نفي أي وجود ثقافي، أو حضاري للشعب الأصلي من جهة، وعلى «المُهمة التحضيرية» للاستعمار من جهة أخرى.

تعاملت «النخب المثقفة» في معظمها مع تبعية الجزائر لفرنسا كمُسلَّمة (الأناضول)

وفي حقيقة الأمر فإن «النخب المثقفة الجزائرية» كانت في معظمها تتعامل مع تبعية الجزائر لفرنسا، كمُسلّمة غير قابلة للنقاش، على اختلاف مرجعياتها الفكرية من «ليبرالية»، كانت تدعو إلى المساواة واندماج «الأهالي» الكامل في الأمة الفرنسية، أو «يسارية» مرتبطة بالحزب الشيوعي الفرنسي الذي كان يرى بأن الجزائر لا زالت أمة في طور التشكّل، تعيش في مرحلة ما قبل الرأسمالية. كما بقيت هذه النخبة أسيرةً لمقاربة ماركس، والتي تبناها بعد زيارته للجزائر، ومعاينته لـ«بداوة» و«توحّش» الجزائريين، ولصوصية مُقاوميهم (وردت عبارة لصّ مسكين، وقاتل محترف من العرب، في وصف الشيخ بوعمامة قائد المقاومة الشعبية، جنوب غربي البلاد، في رسالة ماركس لصديقه إنجلز بتاريخ 18 نيسان 1882)، ما يجعل من الوجود الاستعماري ضرورة تاريخية لتهيئتهم لتقبّل الأفكار التقدمية، أو «إصلاحية» اقتصر «نضالها» على نشر «الدعوة» (وهي أولى بذور انتشار فيروس الوهابية في الجزائر)، وتفعيل التناقض مع الإسلام الجزائري الشعبي، ذي الطابع الصوفي. بل وحتى مثقفو الحركة الوطنية، الأكثر جذرية في مطالبها الرافضة للنظام الكولونيالي، كانوا يضغطون باتجاه التخفيف من حدة مطالبها، ويدفعون نحو «الحلول السلمية الرافضة للعنف»، وللتعايش والحوار مع «المعتدلين من المستوطنين»، وغيرها من الأوهام التي أسبغوا عليها طابع «العلمية» والتي نسفتها تلك الطليعة الثورية في 1954، عندما اعتمدت على أبناء الارياف الذين لم يُصِبهُم ما أصاب أبناء المدن من فيروسات «الثقافة الاستعمارية». ولم يعرفوا مع فرنسا، لا مونتسكيو، ولا جان جاك روسو، ولا فولتير، ولا مبادئ الثورة عن الحرية، والاخاء، والمساواة، إنما ترسخ في وعيهم ما انتقل إليهم من ذاكرة أجدادهم عن أسماء مجرمين، وقتلة مثل الكولونيل مونتانياك (الذي كان مُتحمِّساً لمشروع نقل الشعب الجزائري لجزر ماركيز) أو الجنرال شانغارنيي، أو الكولونيل فوري، وغيرهم كثير، ممن مارسوا كل أنواع الوحشية والتدمير (المصدر نفسه لمصطفى الأشرف، فصل «بسيكولوجيا غزو استعماري»).

> **نجد اليوم «نخبة مثقفة» من كل المشارب ترتبط بمنظومة خليجية متكاملة**

ليس أداء «النخبة المثقفة»، ولا مشاريع الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سوى نموذج عن طبيعة كل استعمار في كل البلاد المُستعمَرة. وسقوط الاستعمار بشكله التقليدي لم يُغيِّر أولاً من طبيعته الهيمنية. فالنخب الفرنسية الرسمية منها، و«المُستقلة»، بقيت وفيّةً لفكرها الاستعماري، كما تجلّى في النقاش الذي دار في فرنسا حول قانون 23 شباط 2005، والذي يتحدث عن «الدور الإيجابي» للوجود الفرنسي في المستعمرات. ثانياً، لم يمنع استمرارية أداء نخبة «المثقفين» الذين لم يتحرروا من «مُركّب التبعية»، لذات الدور في خدمة الاستعمار. فبقيت نفسيتهم مُستأنسة بكل ما يصدر عنه، في تجسيد فعلي للقابلية للاستعمار، كما يُسمّيها مالك بن نبي. فهي تقارب كل الظواهر الاجتماعية والثقافية عندنا، من زاوية رؤية الغرب ذات المضمون المركزي الاستعلائي -يُمكن أن نقرأ روايات، أو نشاهد أفلاماً خصوصاً في تونس، والمغرب، تُعزّز الرؤية الاستشراقية النمطية لمجتمعاتنا- وقد تصل إلى تماهٍ تام مع الاستعمار، إلى حد استدعاء الغزو لبلداننا، كما حدث مع «مثقفي» العراق في 2003. وكما أراد أترابهم أن يحدث في سوريا، في ذات السنة أو في صيف 2013، في «مهمة تحضيرية» جديدة عنوانها «نشر الديموقراطية». فهذه النخبة تُروّج للاستعمار، وتتبنى خطابه، وتُسفِّه أيّ خطاب مقاوم مضاد من الداخل. وتصنع وعياً مُشوهاً لتشكيل بيئة جاهزة لتقبُّل مشاريع الاستعمار. فهي بذلك «تأكل» مواضع المقاومة والوعي الثوري في مجتمعاتنا، تماماً كما تفعل حشرة الأَرَضَة. تلك «الأَرَضَة المُتعلِّمة» (كما سمّاها مالك بن نبي)، التي تلبس أقنعة بيضاء استعمارية وتختفي وراء أسماء محلية، تُجسّد ظاهرة «الاستلاب الكولونيالي»، التي أبدع فرانز فانون في تشريحها. لم يصنع الاستثناء سوى فئة من المثقفين، الذين جسّدوا فعلياً دور «المثقف القطباني»، والذي كتب عنه هادي العلوي، كمحمد شريف ساحلي، ومصطفى الأشرف، ومالك بن نبي، وفرانز فانون.

لم يعد هذا الدور يقتصر على الاستعمار، إنّما انتقل إلى أدواته. فاصبح لهذه «الأَرَضَة المُتعلِّمة» مهمة جديدة هي خدمة «مصالح» الخليج، التي تعني في الأخير خدمة الاستعمار وفق العلاقة الوظيفية التي تربطهما. ومن المفارقات -التي تأكد مدى تماهي بعض هذه النخب مع الغرب الاستعماري- أن بعض النخب ذات النزوع اليميني، والعنصري في المشرق (لبنان خصوصاً) والمغرب (في الجزائر والمغرب خصوصاً)، والتي تأسست ايديولوجياتها